

الصدمة النرجسية أو تدمير البنية
الإنسانية من خلال "عجائب الآثار"
للجبرتي⁽¹⁾

بقلم د/ الطيب رجب

كل ما أمر آت عليه البلى. وكل ما أمر لا بد مأخوذ بالتحديد فلا بد من
ميت ليحيا حي. وللحضارات القومية بدايات ونهايات. فما من أمة ظلت
على حال التحضر أبدا. إلا أن الحضارة الإنسانية بمفهومها الشامل لكالحياة.
نهر خالد ما ينفك يسيل إلى غاياته ويصب في مصبة من أزل القرون.
ولقد أمكن لكثير من المؤرخين ولاسيما مرخو عهود الإنحطاط
والتندهور أن يقفوا على تلك الحقيقة. ولقد وقف عليها ابن خلدون حين
تحدث عن إنحلال العصبية التي "تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية
والمطالبة"⁽²⁾. ولئن كان الرجل يتحدث عن الدول فقد كان في واقع أمره
يتحدث من منطلق حضاري شامل إذ طابق بين الدور الحضاري من جهة
وكل من الدولة العباسية وشقيقتها الدولة الأموية السابقة لها أو تلك المعاصرة
وكذلك الدولة الفاطمية المنافسة لها من جهة أخرى بما أن سائر هذه الدول
تلتقي في المضرة التي أسست لها حضارة واحدة أو كما يقول ابن خلدون
"ملكا" واحدا⁽³⁾ هو الحضارة العربية الإسلامية فشكلت دورا واحدا من أدوار

الحضارة الإنسانية عامة أتاح لها أن تسير على راس الأمم سائرهما وتندفع بالحضارة الإنسانية إلى غاياتها.

ولقد أسس هؤلاء المضرئون حضارة عظيمة اشعت على الدنيا بأسرها. وكان لها من الشمول ما جعلها تمتد على قارات ثلاث ثم افلتت وغربت شمسها إلى ذلك الحد الذي عاد فيه صانعوها إلى بداوتهم الأولى وكأن شيئاً لم يكن يقول ابن خلدون عن أولئك العرب : "توحشوا كما كانوا"⁽⁴⁾. ويردف قائلاً : "بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم. وما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليقة ما كان لأجياهم من الملك"⁽⁵⁾ أي إن شمول تلك الحضارة بالنسبة إلى الحضارات السابقة لها كان كالشمول الذي عليه الحضارة الغربية اليوم بالنسبة لسائر الحضارات السابقة. أما فولتير فبعد أن تحدث في كتابه : "المباحث في الأعراف" (Essais sur les mœurs) عن الحضارة العربية الإسلامية بكل إعجاب لاحظ أن "ليس ثمة اليوم في بلاد العرب غير عشرة آلاف لص يذرعوها في جيئة وذهاب"⁽⁶⁾ مما يعني أن الأمم تتداول على الحضارة أو بالأحرى هي الحضارات التي تتداول بالأمم. وليس من المسلم به أن أمة تحضرت ثم تدهورت تعود إلى ما كانت عليه من حال التحضر. ذلك أن الحضارة تنتقل من أمة إلى أخرى ليس بقرار واع وإنما بإجتماع ظروف وشروط ليس من البديهي أن تجتمع أو قل أن تجتمع في أمة دون أخرى. فليس من المفروغ أن يلعب اليونانيون اليوم نفس الدور الحضاري العظيم المؤسس ذاك الذي لعبوه في ما سبق من العصور. ثم إن

الحضارة لتتهجر الأمة المتحضرة بالرغم مما تبذل من جهد أي بذل لتبقى عليها. فجهدها ما يلبث أن يذهب سدى.

إن الأمة المتحضرة أي كل أمة متحضرة لتقع ضحية اعتقاد زائف يتمثل في الإيمان بأن الحضارة باقية فيها ابدا. فتلفيها تسعى سعيها على ذلك الأساس النهائي في كل ما شيء حتى يؤول تصرفيها للأشياء تصرف المتغطرس الصلف. وإنه لبوسعنا الإدراك المبكر للعلامات المنبئة بأفول الحضارة في أمة من الأمم. ففي القصص الشعبي عندنا ركب فرعون مركبا ارتفعت به النصور إلى السماء بغية محاربة الله. وذلك إنما هو عنوان المستحيل الصرف والصلف هو الذي يؤذي بصاحبه إلى طلب المستحيلات. وفي حضارتنا الإسلامية التف هارون الرشيد إلى السحابة وقد مرت دون غيث منها. فقال لها قولته الشهيرة: "أمطري حيث شئت فخراجهك يأتي". فقد امتدت الإمبراطورية العربية الإسلامية من مشارف الهند وأواسط آسيا إلى إفريقيا وأوربا. بل وامتد تأثيرها أبعد من ذلك وبلغت أوج قوتها مع المأمون ولكنها سرعان ما آلت يدب فيها الوهن.

فترعت على عهد المعتصم إلى ظاهرة العسكرية مثلما كان الأمر كذلك مع الرومان وما هو عليه الأمر مع الأمريكان اليوم. وباتت تعتمد في جيشها العنصر الأجنبي المرتزق مثلما الأمر اليوم مع الأمريكان كذلك. واستمرت على قوتها الحضارية إلى حدود القرن الخامس ثم أخذت من ذلك الوقت تؤول إلى انغلاق بات. ورغم وضوح الوهن فيها لم يكن بالإمكان إيقاف ذلك التزوع إلى التدهور فالشأن الديني سيؤول إلى التقوقع في مؤسسة دينية مغلقة

قد غادرت روح التسامح والحرية التي كان يتميز بها المسلمون في العصور الأولى لظهور الإسلام دينا وحضارة ودولة. والعلوم ستتوقف رويدا رويدا عن كل إضافة وسيترع التأليف فيها إلى الجمع والتصنيف اعتقادا منهم بنهاية العلم في الأمة متغافلين عن أن العلم لا حد له وأن التوقف والإكتفاء بالموجود ليس إل تأخر. ولكن رغما عن كل هذا ستظل الأمة الإسلامية تحظى بشيء من القوة وبعض من المناعة إلى حدود القرن الخامس عشر حين سقطت الأندلس هائيا بيد الإسبان. وإثر ذلك سيسيطر الأتراك على العالم العربي الإسلامي موفرين له الحماية العسكرية اللازمة. فآل بهم ذلك إلى مزيد من الانحطاط. فالقوة العسكرية وحدها لا تمنع التدهور الحضاري عن أمة. ولقد قال مونتسكيو في "الرسائل الفارسية" عن الدولة العثمانية : "فمن مدينة طقة (Tocat) إلى الستانة لا يصادف المرء مدينة واحدة تستحق أن تدعي بمدينة. لقد شاهدت مستغربا ضعف امبراطورية العثملي. فهذا الجسم المريض لا يماسك بنظام سمح معتدل وإنما بأدوية عنيفة ترهقه وما تنفك تهدمه". ويضيف معلقا : "أي عزيزي روستان هذه فكرة صحيحة عن هذه الأمبراطورية التي ستكون قبل قرنين مسرحا لانتصارات بعض الفاتحين"⁽⁷⁾.

وفعلا أصبحت تلك الدولة عرضة لغزو الغازين قبل ذلك. فحملة نابليون على مصر بعد نحو من ثمانين سنة مرت على كتابة الرسائل الفارسية كانت إعلانا أولا عن غروب شمس تلك الإمبراطورية.

إن الامبراطوريات لتتأمر أطرافها. وتكثر مهماتها. وحين تكثر تلكم المهمات تبدأ في التراجع. فتصر على مهماتها تلك. فيزداد الطين بلة فتذهب

قوتها. ولا تبق منها سوى قوة عسكرية ما تلبث بدورها أن تضمحل. ولكنها تظل تعتقد في نفسها المناعة. وتظل نرجسيتها التي قادتها إلى هذا الحال تسيطر عليها زمنا. وعند هذا الحد تصبح الدولة تتصرف تصرف فرد من الأفراد عظيم عملاق لأن المجتمع المدني فيها قد انحل في الواقع منذ وقت بعيد. وليس أدل على ذلك اليوم من الدولة الأمريكية التي بات يحكمها ناس من درجة متدنية إن لم يكونوا جهالا وحالات مرضية بآتم معنى الكلمة. وآلت تتجسد في صورة فرد واحد يتصرف تصرف الكاوبوي.

وليس ثمة من قد أبدع في تصوير الحال الذي آلت إليه الشعوب العربية من عبدالرحمان الجبرتي في كتاب "تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ذلك الذي وضعنا في الصورة الصحيحة لمعنى الجرح النرجسي، لمعنى الصدمة النرجسية التي تهمز أمة كانت تعتقد في نفسها المناعة وتنظر إلى الآخرين نظرة احتقار وازدراء. فإذا بذلك المحتقر المزدري ينقلب غازيا لها منتهكا حرمتها. فهذه مصر ذات الحضارة التليدة تصبح عرضة لحملة يقوم بها شعب صغير لم يشهد حضارة قبل هذا التاريخ. ويقول فولتير : "فعلى أي وجه قلبنا الأمور ينبغي أن تعترف أننا لم نوجد إلا منذ الأمس القريب. ونحن ذهبنا أبعد من الشعوب الأخرى (...). ولعل ذلك كائن بسبب أننا جئنا آخرهم"⁽⁸⁾ وهذه الحملة إنما هي حملة نابليون على مصر التي وقعت سنة 1798/1213 تلك الحملة التي قبلت المفاهيم رأسا على عقب وخلطت الممكن بالمحال. وقد عبر الجبرتي عن هذه الحقيقة في فقرة تعتبر من أنفذ ما يقرأ البصير المتبصر في تاريخ الأمم وأعماقها وأبعدها غورا وصدقها في تصوير حالة الإنكسار التي أضاعت

أمة كانت تعتقد نفسها بمنأى عن غزو الغزاة وفتح الفاتحين. يقول الجبرتي صارخا صرخة تنبئ عن عمق الجرح النرجسي والصدمة المدمرة مصورا هول تلك السنة ذات الهول الأعظم من أي هول آخر ما يلي :

"وهي أولى سني الملامح العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي الحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب. وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"⁽⁹⁾.

وليس أدل على الهول الذي ضرب الرجل وضرب الخاصة والعامة من هذه العبارات المترادفة التي هي عبارة عن توقف للزمن عن توقف لعقرب الساعة. فالأمر إلى هول النهاية المحتومة. ولكن من اللافت أن الجبرتي يعتبر ما حصل نتيجة من نتائج الظلم الذي بات الحقيقة الوحيدة لذلك العصر. فلم يكن الوضع على ما يرام حتى لا يغزو البلاد غاز.

ولقد كان الوضع كما قلنا يتميز -إن كان ذلك تميزا- بالظلم بمختلف ألوانه وبالعسف بمختلف أنواعه. فقد ظل الجبرتي من سنة إلى أخرى قبل الحملة يردد مع كل حلول عام جديد أن ليس ثمة ما يميزه غير ظلم المماليك المتنوع وعسفهم المتصل. يقول مثلا عن سنة سبع وما تتين وألف :

"إستهل المحرم بيوم الخميس والأمر في شدة من الغلاء وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملؤوا الأسواق والأزقة

رجالا ونساء وأطفالا لا يكون ويصيحون ليلا ونهارا من الجوع ويموت من الناس في كل جملة كثيرة من الجوع" (10).

كما يقول عن سنة تسع ومائتين وألف :

"لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم..." (11).

كما يقول عن سنة عشر ومائتين وألف :

"لم يقع بها شيء من الحوادث التي يعتني بتقييدها سوى مثل ما تقدم من هول الأمراء والمظالم" (12).

أو كما يقول عن سنتي أحد عشر واثنين وعشرين ومائتين وألف :

"لم يقع فيهما من الحوادث التي تتشوف لها النفوس وتشتاق إليها الخواطر فتقيد في بطون الطروس سوى ما تقدمت إليه الإشارة من اسباب نزول النوازل وموجبات ترادف البلاء المتراسل ووقوع الانذارات الفلكية والآيات المخوفة السماوية" (13).

فليس الوضع إلا عسفا وظلما واضطرابا.

اضطراب ووضع سياسي شاذ. فحكام البلاد ليسوا من أهل البلاد بل غرباء عنها ليس لهم من حس وطني أو وازع قومي يدعوهم إلى غيرة أو حتمية أو ليس لهم من "عصبية" على المعنى الخلدوني يدعوهم إلى الارتداع. وهذا يعني أن الباب العالي أو الدولة العثمانية تعطي الحكم لهؤلاء المماليك "لزمة" كلزمة الضرائب أو لزمة الجلد أو التبغ. فلاهم له في إصلاح أو تنظيم أو سهر على مصالح إلا ما يأتيه من ولاء وما يصاحبه من ضرائب وأرياع وهدايا.

وهؤلاء المماليك صاروا بدورهم متحارين متقاتلين فانقسموا إلى "قبلية" و"بحرية" وتقاتلوا تقاتل الغرماء. يقول عن وقعة وقعت بينهما مايلي :

"وأبلى فيها المصريون البحرية والقبلية مع بعضهم وتنحت عنهم العثمانية ناحية وهجمت القبالي والقوا بأنفسهم في نار الحرب وطلب كل غريم غريمه ثم اندفعت العثمانية مع البحرية..."⁽¹⁴⁾.

الكل خصيم الكل والكل متحالف مع الكل والكل متنكر للكل. فهذا هو مآل الأجناد. قلوب غير مؤلفة وتأثر بئار. يقول عن سنة أربع ومائتين وألف :

"وفيه وقعت ولقعة بين عسكر القليوڤجية والأزنودية بسوق السلاح وقتل بينهم جماعة من الفريقين ثم تحزبوا أحزابا فكان كل من واجه حزبا من الطائفة الأخرى أو انفرد ببعض منها قتلوه. ووقع بينهم مالا خير فيه وداخل الناس الخوف من ذلك فيكون الإنسان مارا بالطريق فلا يشعر إلا وكرشة وطائفة مقبلة وبأيديهم البنادق وهم قاصدون طائفة من أحصامهم بلغهم أنهم في طريق من الطرق..."⁽¹⁵⁾.

لقد بات الأمن معدوما مما لن يعطل مصالح الناس اليومية فحسب ولكن سيعيق أي نزوع نحو التقدم والبناء الحضاري يقول الجبرتي :

"وفي هذه الأيام حصل وقف حال وضيق في المعاش وانقطاع للطرق وعدم أمن ووقوف العربان ومنع السبل وتعطيل أسباب وعسر في الأسفار برا وبحرا..."⁽¹⁶⁾.

بل لقد تعطلت مصالح الدولة نفسها وباتت الخزينة فارغة فلجأ الحكام إلى جمع الضرائب بغير وجه وحق وآلت "الضرورات تبيح المخطورات" (17) كما يقول الكاتب نفسه على لسان الخاصة من العلماء. بل لقد تنوعت الضرائب إلى حد مزر فهذا الشتوي وهذا الصيفي وهذه "الفردة" وهي ضريبة تجعل على اصناف المهن من تجار وصاغة وجواهرية وغيرهم وهذه أصناف المكوس واصناف السلف القهرية وهذا حق الطرق الذي يعني أن جباة الضرائب أنفسهم لهم حقوق تدفع من قبل المواطنين فيشتطون فيها بدورهم. يقول عن سنة ست ومائتين وألف :

"وفي شهر ربيع الثاني قرروا تفريضة على تجار الغورية وطيلون وخان الخليلي. وقبضوا على أنفار أنزلوهم إلى التكية ببولاق ليلا في المشاعل ثم ردوهم ووزع كبار التجار ما تقرر عليهم على فقرائهم بقوائم وناكد بعضهم بعضا وهرب كثير منهم فسمروا دورهم وحوانيتهم وكذلك فعلوا بكثير من مساتير الناس والوجاقلية وضج الخلق من ذلك" (18).

وكل ذلك سيصيب مصر سائرهما بالشلل التام وسيكون أساسا الفلاح المصري -الأصل في مصر- ضحية لهذا الوضع، ذاك الفلاح الذي سيجد نفسه بين المطرقة والسندان، بين المماليك والعربان يهددون أمنه ويسلبون رزقه ويعمقون جرحه ويزيدون جهله. إن الميزة الأساسية للمجتمع في مصر في ذلك الوقت هو التفكك التام فيكاد يكون كل واحد من الثلاثة يشكل مجتمعا على حدة معاد للمجتمع الآخر. وإذا كان المماليك أجنب فإن العربان ليسوا

كذلك ولكنهم كانوا سببا في تدمير المجتمع بأكمله وإشاعة الفوضى وانعدام الأمن فلم يسلم أحد منهم حتى الحجيج يقول :

وفي يوم الأحد المذكور حضر نجاب الحج وأخبر أن العرب وقفت للحجاج في طريق المدينة وحاربوهم سبعة أيام وانجرح أمير الحاج وقتل غالب أتباعه وخاز ندره ومن الحجاج نحو الثلث ونهبوا غالب حمولهم بسبب عوائدهم القديمة⁽¹⁹⁾.

"وفي رابع عشرينه نهب العرب قافلة التجار والحجاج الواصلة من السويس وفيها شيء كثيرا جدا من أموال التجار والحجاج ونهب فيها للتجار خاصة ست آلاف جمل ما بين قماش وبهار وبن واقمشة وبضائع وذلك خلاف أمتعة الحجاج وسلبوهم حتى ملابس أبدانهم وأسروا النساء وأخذوا ما عليهن ثم باعوهن لأصحابهن عرايا"⁽²⁰⁾.

وليس غريبا والوضع هذا ترتفع الأسعار يقول :

"وغلا سعر الغلة من ريالين إلى ستة وضجت الفقراء وعيطوا على الحكام فصار الآغا يركب على الرقع والسواحل ويضرب المتسبيين في الغلة ويسمرهم في آذانهم"⁽²¹⁾.

وليس غريبا لذلك أن يعم التضخم المالي ويضطرب الصرف بهوى الحكام مما مؤذن بإفلاس التجار وغلاء المعيشة يقول :

"وفي عاشره وصل ططري وعلى يده أوامره منها حسن عيار المعاملة من الذهب والفضة وأن يكون عيار الذهب المصري وتسعة عشر قيراطا ويصرف بمائة وعشرين نصفًا بنقص أربعة أنصاف عن الواقع في الصرف بين الناس

والاسلامبولي بمائة وأربعين وينقص عشرة الفندلي بمائتين بنقص خمسة الريال
الفرانسة بمائة بنقص خمسة أيضا والمغربي بخمسة وتسعين بنقص خمسة أيضا
وهو المعروف بأبي مدفع والبندقي بمائتين وعشرة بنقص خمسة عشر. فتل
الأغا والوالي ونادى بذلك فحسر الناس حصة من أموالهم⁽²²⁾.

بل لقد تعدد العسف بالناس إلى حد لا يصدق. فتوالت الحن والمجاعات
حتى أكل الناس الأطفال⁽²³⁾ وتعدد النهب والخطف حتى التبن خطف
"وخطف أتباعهم ما صادفوه من الجمال والبغال والحمير وقرب السقائين التي
تنقل الماء من الخليج ونهبوا الخبز من الطواجين والمخابز والكعك والعيش من
الباعة"⁽²⁴⁾.

وقد ديست الحقوق جميعها فالقتل بات أمر يحصل بهوى الحكام وبات
الظلم يصلح بظلم آخر. وانعدمت حتى أدنى الحقوق الشخصية يقول :
"وعملوا على زوجات أمير الحاج ثلاثين ألف ريال وأرسلوا إلى بيت حسن
كاشف المعمار فأخذوا ما فيه من الغلال وغيرها لأنه قتل في معركة العرب مع
الحجاج والبسوا زوجته الخاتم قهرا عنها ليزوجوها لمملوك من ممالك مراد بك
وهي بنت علي أغا المعمار ووجدت على زوجها وجدا عظيما وأرسلت
جماعة لإحصار رمتة من قبره الذي دفن فيه في صندوق على هيئة تابوت"⁽²⁵⁾.
إن هذا الوضع سيؤول بمصر إلى تكون عرضه لحملة نابليون الذي كان
على علم بما يحصل في مصر وعلى معرفة بالوهن الذي أصابها فبات للفرنسيين
فيه حق فلا يعقل أن تكون حقا للماليك وحدهم.

إن وضعاً كهذا الوضع سيقود حتماً إلى الكارثة أو إلى أشد الكوارث وقعا وتتمثل في احتلال من قبل أمة أخرى. فالحياة صراع والقوي فيها لا مناص من أن يسيطر على الضعيف. والضعف مغر. وليس أدل على ذلك من قوله منتسكيو سابقة الذكر ومن المرسوم الأول الذي أصدره نابليون عندما احتل الإسكندرية وقد جاء فيه أن "هذه الزمرة من المماليك... يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض"⁽²⁶⁾. ويقول النص الفرنسي: ⁽²⁷⁾"La plus belle partie de la terre" أي "أروع أقاليم المعمورة" ذاك الذي عرف أعظم الحضارات حين كان الشعب الفرنسي الصغير نسيا منسيا يقول المرسوم :

"وسابقاً كل في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر"⁽²⁸⁾. ويعلق التعليق المناسب : "ما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك"⁽²⁹⁾ ولكن الأخطر من ذلك هو ظلاميتهم التي أغرقت مصر في ظلام دامس من الجهل. يقول المرسوم مخاطباً أهل مصر : "وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط". ويعلق مرة أخرى التعليق الصائب لكبد الحقيقة : "وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب". وفي مرسوم آخر توصف الدولة المملوكية بأنها "الدولة المفعمة جهلاً وغباًوة"⁽³⁰⁾. ويعلق الجبرتي نفسه على هذا النعت : "و لم يعجبني إلا قوله المفعمة جهلاً وغباًوة"⁽³¹⁾.

وينطبق عليها فعلاً ما قاله منتسكيو عن الدولة العثمانية قاطبة : "إن هؤلاء الهمج قد تخلوا عن الفنون إلى حد أنهم تخلوا حتى على الفن العسكري.

فقد بقوا عندما كانت الأمم الأوروبية تتهدّب يوما على جهالتهم السابقة⁽³²⁾.

فإن دولة هذا حالها سيطمع فيها دون شك الغزاة وتصبح مهبا منهوبا وحقا مباحا لكل فاتح مغامر. يقول المرسوم الأول متحدثا عن هؤلاء المماليك الظلمة : "فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن ما فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة"⁽³³⁾ ويتساءل نفس المرسوم هل إن "الأرض المصرية التزام للماليك؟"

وخلاصة القول لقد باتت مصر حقا مباحا لكل غاز، الكل من يمتلك القوة التي تمكنه من أمن يحي محل أولئك المماليك الذين فقدوا أي شرعية تخول لهم حكم وطن. فليس لهم من هم غير جمع الضرائب والميري الضريبة التي يدفعونها للباب العالي مقابل السيطرة على مقدرات مصر، "أروع أقاليم المعمورة".

ولقد بات الوضع متدهورا متداركا إلى أبعد الحدود وصار المجتمع في غفلة من أمره وحكامه أكثر غفلة منه. فالانقسام هو الصفة البارزة فيه. لذا سرعان ما انهزم الأمراء. وكيف لا يهزمون وكلهم غرور قد أدى بهم إلى عدم الاستعداد للحرب ظنا منهم أنهم الأقوياء أبدا بسبب ما ركبهم من نرجسية استفحلت بهم أي استفحال. يقول صاحبنا : "هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقرهم ووصولهم إلى فناء مصر. بل كل من ابراهيم بك ومراد بك جمع

عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل. وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو⁽³⁴⁾ وسوء التدبيل هذا وإهمال أمر العدو هما بسبب ما قلنا من غرور نرجسي. وحين وردت أخبار عن الحملة من الاسكندرية كان رد فعل الأمراء أي الممالك سلبيا مستخفا بأمر العدو : "وأما الأمراء فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكثرثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الأفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم سيدوسونهم بخيولهم"⁽³⁵⁾ ولكن لما حصل القتال سرعان ما تبين الفرق بين من أعد العدة وبين من ظل منتظرا الطامة. يقول : "وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته، وطلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال"⁽³⁶⁾.

ولم يكن موقف الجند بأحسن حال من موقف الحكام فهم أخلط لا يجمع بينهم شيء بل هم مرتزقة من جميع الملل : "ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل الفرنسيين إلى الجسر الأسود واصبح يوم السبت فوصلوا إلى أم دينار فعندما اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ولكن الأجناد المتنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مغترون يجمعهم محتقرين (هكذا!) شأن عدوهم مرتكبون في رويتهم مغمورون في غفلتهم"⁽³⁷⁾.

ولعل من اللافت للنظر أن استعدادهم لم يكن غير مزيد من الظلم للشعب الذي من المفروض أن يهب لمعاودة الجيش في دفع الغزاة. يقول :

وأخذوا في الإستعداد للثغر وقضاء اللوازم والمهمات في مدة خمسة أيام فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن⁽³⁸⁾.

فكيف يكون ردّ فعل شعب مغيب مظلوم مقموع منتهك الجانب؟ لقد بذل عموم الناس كل ما في وسعهم فجهزوا المقاتلين وأنفقوا عليهم. ولكن حمّ القضاء. إذ لم يعد شيء من ذلك بنافع. يقول : "إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه ولكن يسعفهم الدهر"⁽³⁹⁾.

فالفوضى هي التي سادت بين الناس. فليس ثمة من تناغم بين شعب وأولي أمره ولا بين طبقات الشعب وفئاته. فحين اجتمع الناس للقتال تبين ضعفهم ووهنهم وعدم انسجامهم يقول : "وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوما لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دار همهم"⁽⁴⁰⁾.

أجل لقد بات عامة الناس حين تأكدت الهزيمة "لايسال أحد عن أحد بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه"⁽⁴¹⁾. وحين فرّ المماليك ىلت تلك العامة في فوضى وخوف وفرع يقول : "وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى الجهة المدينة ودخلوها أفواجا وهم جميعا في غاية الخوف والفرع وترقب الهلاك وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله من شرّ هذا اليوم العصيب"⁽⁴²⁾.

فأين هذا مما حصل من الفرنسيين؟ فعندما قامت انتفاضة القاهرة واجهوها بتنظيم وانسجام. يقول الجبرتي: "وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقناير والبنات ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين" (43).

وهذا أمر في غاية الدلالة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حالة الضيع التي كان عليها المصريون. فقد "تجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم" (44) فشتان إذن بين من له رئيس حقا ومن ليس له. إذ السلطة ليست دائما سلبية ولكن في مجتمعات دمرها الاستبداد تصبح صورته سلبية بالضرورة. والعامة قد تحررت من تلك السلطة تصبح الحرية لديها متمثلة في فعل كل شيء. ولذلك نراها قد خرجت (..) عن الحد وامتدت ايديهم إلى النهب والخطف والسلب" (45).

وحين أزمع الناس على الحرب تلقاهم البدو وفعلوا بهم ما لايفعل العدو بعدوه. "فلما خرجوا من ابواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته" (46).

إن الترجسية لمرض يصيب الفرد فينغلق على نفسه ويصل به الأمر إلى مشارف الجنون غير أن الأهم هو عشقه لنفسه وغروره بها أو جنونه بها. ولا يختلف الأمر ونحن إزاء الحضارات والشعوب والأمم. فكما قد رأينا لقد اغتر الجند برؤسائهم واغتر الرؤساء بأنفسهم وآمنوا جميعا بقوتهم في حين أنهم قد داهمهم الوهن والضعف من زمن بعيد. ولعل اصدق دليل على ذلك زيادة

على ما قدمناه أمر الأبواب التي باتت تشكل رمز لذلك الإنغلاق ولتلك
المناعة المزعومة حتى جاء غاز فاجر فأتك فهتك عليهم سترهم وكسر أبوابهم
وعرى المستور والعوزات. فلقد آلت المدينة مغلقة على نفسها يحوطها سور
مجمعول لحمايتها ولكن الحماية باتت سجننا لها وداخل المدينة كانت الأحياء لها
أبواب تفتح على الدروب و"الخطط" وهذه لها بدورها أبواب ألها أبواب مدينة
أسطورية تلفى فيها الباب يفتح لك وينغلق إثر باب آخر عنوانا على انغلاق
حضاري وانكفاء على النفس انكفاء المريض النفسي. فباتت تلك المدن عرضة
لتلك الحالة من الضياع التي رأينا العامة عليها ولتلك الحالة من التدارك
الروحي ثم للأمراض والأوبئة. فقد فتك الطاعون بالاجتمع أي فتك بسبب
تكس الناس على بعضهم البعض في سكن متلاصق. وحين آل الأمر بأيدي
الفرنسيين هتكوا المغلق وأذاعوا المستور فكسروا الأبواب وفتحوا أبوابا جديدة
في أسوار المدينة. فأى شيء أكثر رمزا من هتك الحرمة هذا؟ يقوا الجبرتي :

"وفيه شرعوا في تكسير أبواب الدروب والبوابات النافذة وخرج عدة
من عساكرهم يخلعون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات. فاستمروا
على ذلك عدة ايام"⁽⁴⁷⁾.

ولقد كان رد فعل الناس على ذلك ذا معنى مخصوص إذ هو رد فعل
المريض وقد كان مرضه غير ظاهر فظهر بعامل خارجي يقول : "وداخل الناس
من ذلك وهم وخوف شديد وظنونا وظنونا وحصل عندهم فساد مخيلة
ووسوسة تجسست في نفوسهم بألفاظ نطقوا بها وتصوروا حقيقتها وتناقلوها
فيما بينهم كقولهم إن عساكر الفرنسيين عازمون على قتل المسلمين وهم في

صلاة الجمعة ومنهم من يقول غير ذلك وذلك بعد أن حصل عندهم بعض اطمئنان وفتحوا بعض الدكاكين فلما حصلت هاتان النكتتان انكمش الناس ثانيا وارتجفت قلوبهم⁽⁴⁸⁾.

فليس هذه الحالة غير حالة انهيار جاءت بعد حالة من الاضطراب والهياج وهما الحالتان اللتان يمر بهما كل مريض نفسي فردا أو جماعة. ويقول كذلك في خلع الأبواب تعبيرا عن كثرتها وكانوا يظنون أنها تحميهم فلم تحمهم: "وفيه شرعوا في خلع البوابات والدروب غير النافذة ايضا ونقلوا الجميع إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب والبوابة الكبيرة يقطعونها نصفين ويرفعونها بالعتالين إلى هناك فاجتمع من ذلك شيء كثير جدا"⁽⁴⁹⁾.

فكأن لم يكن لأهل المدينة غير إقامة الأبواب وغلقها وكل مطمئن إلى أبوابه وفجأة تقلع وتخلع وتكسر وتباع. كان ثمة مجتمع يبدو راضيا مرضيا ومطمئنا إلى أن الأمور ستستمر على هذا الوجه أبدا دون حساب لأمة أخرى تقوى شوكتها فتغزوهم. وبكسرهما سيضطرب المريض أيما اضطراب لذلك سنراه يحاول الإبقاء عليها بكل ثمن. فالمريض يرفض أن يغادر مرضه ويخرج من قوقعته إلى النور يروي الخبري: "وفيه أيضا قلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة الغير النافذة وهي التي كانت تركت وسومح اصحابها وبرطلوا عليها وصالحوا عليها قبل الحادثة ارتجعوا عليها وقلعوها ونقلوها إلى ما جمعوه من البوابات بالأزبكية ثم كسروا جميعها وفصلوا أحشائها ورفعوا

بعضها على العربات إلى حيث أعمالهم بالنواحي والجهات وباعوا بعضها حطباً للوقود وكذلك ما بها من الحديد وغيره" (50).

وهذا الوضع المتردي سياسياً واجتماعياً وروحياً وقد آل إلى ما آل من احتلال سيسفر عن تخلف تقني وعلمي كبير إلى حد بعيد. لقد أكل الاستبداد كل شيء وأتى على كل شعاع نور. ولعل عنوان كتاب الجبرتي "تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار" خير دليل على التخلف العلمي والتقني الذي آل إليه المجتمع كله وبهر كاتبنا بصفة خاصة. فكل ما أمر شاهداه عندهم نعتة بالعجيب. ويروي على لسان الفرنسيين أولاً "أن في يوم الجمعة حادي عشرينه قصدنا أن نظير مركبا ببركة الأزيكية في الهواء بخيلة فرنساوية. فكثرت لغط الناس في هذا كعادتهم. فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الافرنج ليروا تلك العجيبة" (51).

وحين خابت المحاولة في تطير ذلك المنطاد في ذلك اليوم عبر الجبرتي عن إحساس بالراحة فلا يمكن أن يطير شيء بحكمة مصنوعة فلا بد للطيران من حكمة إلهية أي من إرادة إلهية. "فلما حصل لها ذلك انكشف طبعهم لسقوطها ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات بل ظهر أنها مثل الطائرة التي يعملها الفراشون المواسم والأفراح" (52).

فشتان إذن بيت من أخضع قوانين الطبيعة أو الحكمة الإلهية واستعملها لصاله ومن جعلها أمرا بعيد المنال لذا كان كل ما أمر عنده عجيب أو منعوت بالعجيب "وجعلوا طاحونا تدور في الهواء عجيبة" (53).

ولقد بات التخلف التقني بينا مما جعل الجبرتي يقف معجبا بالنقالة المدعوة في المغرب العربي عامة باللفظة الفرنسية المعربة بالبرويطة La brouette: "كانوا يجعلون بدل الغلقان والقطاع عربات صغيرة ويدهاها ممتدتان من خلف يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجري على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة" (54).

فهذا ما آل إليه بلد عرف الأهرامات وعرف العتلة والعجلة والرافعة وشقته أسلاب الأندلس "على الظهر والعجل" كما يقول صاحب "نفح الطيب" ويعبر فيما بعد عن إعجابه بآلاتهم وبنجاعتهم فيما يلائتة من اشغال، في حين أن المصريين باتوا "لا يعرفون صناعة جر الأثقال" (55). ذلك أن الباشا أمر بإحضار احد الأحواض فعجز الحمالون على نقله. هذا حال بناء الأهرام وبناء الحضارة الفرعونية والحضارة العربية الإسلامية.

أما بخصوص العلوم وتخلفها فحدث ولا حرج إذ لم يعد ثمة اشتغال بها بالمرة. وقد عبر الجبرتي رغما عن أنفه عن إعجابه بآلاتهم وبمعهد مصر (Institut d Egypte) دون أن يذكر اسمه في أول الأمر ثم ذكره لاحقا على أنه مدرسة العلم ببر مصر وقد عبر عن إعجابه بمكتبتها ونظامها وقد ذهب

إليها فأطلعوه عليها "فيـ{ها} جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون ويحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر ساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتحتاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر.." (56).

وتحدث عن ممارستهم للعلوم وللبحث العلمي بكل استغراب "فعند توت الفلكي وتلامذته في مكائهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن" (57).

وهذا كذلك بلد المومياء يصبح حفظ الأجسام في عينه أمرا غريبا عنه. يقول صاحبنا : "ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذي لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته في ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ولو بقي زمنا طويلا" (58).

كما نلقيه يتحدث بإعجاب عن التجارب الكيميائية وهو ينتسب إلى شعوب هي أساتذة أوربا في هذا الباب كما أكد ذلك فولتير في "مباحث الأعراف". يقول فولتير : "ولكن منذ القرن الثاني للهجرة أصبح العرب أساتذة أوربا في العلوم والفنون." (59).

ويضيف في مكان آخر من الفصل نفسه : "كان لابد لمسيحي الغرب من أن يتعلموا على المسلمين منذ القرن الثاني للمحمدى" (60).

ونلّفي كذلك الجبرّي يتحدث عن "آلات تقاطير عجيبة"⁽⁶¹⁾ ويقول عن بعض التجارب الكيميائية الاستعراضية التي قام بها الفرنسيون لإبهار جمع من خاصة المصريين : "ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً. وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعناه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانة انزعنا منه فضحكوا منا"⁽⁶²⁾.

وسيعترف رغماً عنه كما قلنا بهذه "الأمر الكثرة والبراهين الحكيمة {التي} تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع. ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا"⁽⁶³⁾.

أي أنه ليس ثمة من صدمة علمية فالنرجسي يجرح ولكنه لن يعترف أبداً بما آل إليه أو إنه إذا ما اعترف فهو سرعان ما تخلص عن اعترافه ذاك ليعود إلى حاله الأول مطمئناً إلى غروره مكتفياً بعشقه نفسه.

وحين تراجعت الحملة البونابرتية بفعل عوامل عديدة لاصلة لها بالقوة الذاتية أو بتنظيم وبشحن عزيمة وهمة والتي هي تحالف الأنجليز مع الباب العالي وعوامل فرنسية بحتة ومفعول الطاعون بالفرنسيين سواء في مصر أو فلسطين - حينها حل العثمانيون. وذلك ما سيجعلنا ندرك أصل الداء متمثلاً أساساً في

وضعية "الرجل المريض" التي كانت عليها الدولة العثمانية بأكملها. ولم يكن العثمانيون أفضل وقعا من المماليك على "الإقليم الحسن الأحسن في الأرض" بل كانوا أنكى بهم نكاية.

لقد كانوا أشد غرورا من المماليك مما جعلهم يستخفون بعدوهم. فلقد كانوا ينقضون اتفاقاتهم مع الفرنسيين فيعود عليهم هؤلاء بقتال منظم موقعين بهم الخسائر الكبيرة. ويكفي أن نقرأ مايلي من جملة ما ذكر الجبرتي لنذكر مدى الإهمال الناتج عن الغرور. يقول : "وأخلى الفرنسياتوة قلعة الجبل وباقي القلاع التي أحدثوها ونزلوا منها فلم يطلع إليها أحد من العثمانيين. ولم يلتفتوا لتحصينها ولاربطها بالعساكر والجبخانة وأعرضوا عن المحاذرة وركبهم الغرور لأجل نفاذ المقدور"⁽⁶⁴⁾ إذ لم يكن لهم من غاية تطلب غير التسلط على مقدرات "أروع إقليم في المعمورة" (La plus belle partie de la terre) وابتزازها بمختلف الضرائب بغير وجه حق. ولذلك حين اتفقوا مع الفرنسيين على خروجهم وعلى مال يدفعونه لهم ومراكب يوفرونها، اشتطوا في جمع المال المطلوب من عامة الشعب وأرباب الصنائع. ونذكر على سبيل المثال مايلي مما رواه الجبرتي : "وأخذ السيد أحمد المحروقي في تحصيل القدر {من المال المطلوب} من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف وشرعوا في تحكير الأقوات فعلت أسعارها وضائق مؤمن الناس ودهى الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين. وكان أول قادم منهم أمير المكوسات ومحكر الأقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم"⁽⁶⁵⁾.

فلم تكن لهم من غاية حسب عبارة الرجل نفسه غير تقرير "الفرض وظلم الفقراء"⁽⁶⁶⁾ وما ينتج عن ذلك من ظلم مما جعل عموم الناس يتمنون عودة الفرنسيين لتخليصهم من هذا الجحيم. يقول الجبرتي : "وتمنى أكثر الناس خصوصا الفلاحين أحكام فرنساوية"⁽⁶⁷⁾ فأى شيء أنكى من هذا؟ أي شيء أشد ظلما من هذا الظلم يجعل الشعب الذي ثار مرتين على الفرنسيين يتمنى عودتهم؟

ولعل أفصح ما أورده الجبرتي تعبيرا عن هذا الواقع المرير قول أحدهم وهو الشعبي يقول هذا الأخير : "وصادفنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوباء"⁽⁶⁸⁾.

فلاهم هؤلاء ولاهم أولئك. وإنما فجرة ظلمة أباحوا الحرمة الإنسانية فقتلوا الناس بذنوب وبدون ذنب وبالذنب اليسير. فقد "قبضوا على امرأة سرقت أمتعة من حمام وشنقوها"⁽⁶⁹⁾ وهذا "قتل بأمر الوزير وترك مرميا ثلاث ليال"⁽⁷⁰⁾.

ولعل أروع ثاني قولة جاءت على لسان الجبرتي بعد وصفه لسنة الحملة هي هذه الفقرة التي توجز المأساة بكل أبعادها والتي تحدث فيها عن : "أفعال أوباش العسكر الذين يدعون الإسلام ويرعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريتهم على هدم البنية الإنسانية لمجرد شهواتهم الحيوانية"⁽⁷¹⁾.

وجملة القول لقد كان العثماني بعبارة قالها الطبري في تاريخه عم ملك طسم : "ظلوما غشوما لا ينهاه شيء عن هواه"⁽⁷²⁾.

وعدا الغرور والظلم كانت الصفة البارزة الأخرى هي الفوضى التي سادت في المجتمع والتي تسبب فيها الحكام وعسكرهم. فعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هذه الحادثة التي هي ليست عنوانا للظلم وحسب بل للفوضى. فقد "مات تسعة اشخاص في شربر عرقسوس" (73) وذلك أن عسكريا شرب عرقسوسا ورفض دفع الثمن فشكاه العرقسوسي إلى "القلق الانكشاري" فانتهزه وأمره بالدفع غير أن العسكري استل طبنجته وقتله ثم لجأ إلى بيته وتحصن بها وضرب كل من حاصره فقتل خمسة أشخاص. ومر أرنؤدان فقتلها الانكشارية لالشيء إلا أنهما من جنس ذلك العسكري ثم أحرقوا عليه الدار ولما خرج فرارا من النارقتلوه. وهكذا مات تسعة في شربة عرقسوس. وقد ثبت العسكر الفوضى في كل مكان يقول : "ووقع من طرائف العسكر عريضة بالأسواق وتخطفوا أمتعة ومن باعة المأكّل... فانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الخوانيت وأخلوا منها واغلقوها" (74).

ولعل الفوضى باتت شائعة في كل شيء. فحين كان الوزير يبني بيتا سخر جميع الطوائف للعمل. فكانت تلك الطوائف حين تأتي لأداء تلك السخرة تأتي ومعها الطبول والمزامير فاختلطت أصناف منها في تنافر وهو صورة للواقع المصري عامة ولحال الجند المرتزق غير المؤلفة قلوبهم. "ويحضرون على العمل ويقدمهم الطبول والزمور... فيصير بذلك ضجة عظيمة مختلطة من نوبات تركية وطبول شامية ونقاير كشوفية ودبادب حربية وآلات موسيقية وطبالات بلدية وربابات برامكية" (75).

وتلك الفوضى ستؤدي إلى الاضطراب السياسي فقد استمر العثمانيون على مطاردة المماليك وظلوا هم أيضا في اعتداء على بعضهم البعض وفي تقاتل وانفلات. فهذا وال كانت مدة حكمه يوما وليلة⁽⁷⁶⁾. ثم قتل ليتولى مكانه آخر سيقتل بدوره بعد اسبوع. وكل هذا الوضع سيؤدي إلى تدمير البنية الإنسانية وإذلال الذات البشرية والإنحدار بها إلى الصغار الذي ليس بعده صغار. وقد نعت الجبرتي ذلك الحال بالردالة وهي مصيبة المصيبات التي تجعل الفرد مهتما ذليلا عاجزا على النهوض تحكمه روح العبودية والاستكانة. فحين تفتقد القوانين يباح كل شيء ويحكم الحكام بأهوائهم وحين تطلق الأهواء يؤول الأمر إلى أسوأ المراتب أي إلى تلك المراتب التي إذا وصل إليها النسر انتحر. فالإنسان فيه القوة إلى حد العظمة ولكن فيه الضعف إلى حد الحقارة. فهذا الوزير كان يجلس متابعا بناء بيته فإذا طائفة من الجند جاءت للمساعدة وإذا طائفة تتنافس على تلك المساعدة وإذا مساعده يصور له أن الناس تأتي من تلقاء نفسها فيأخذ في تسيير ذلك التطوع المزعوم فيكلف الطائفة العرقية أو المهنية بالسخرة وأكثر من ذلك بأن تدفع مالا بقشيشا للطباليين والزمارين فيأخذ منهم المال الكثير ومن لم يدفع كلفة مشقة أكثر من غيره. ويلخص الجبرتي تلك الردالة في ثلاثة الفقرات الرائعات بصفة خاصة فيقول: "فاجتمع على الناس عشرة أشياء من الردالة وهي السخرة والمعونة وأجرة الهعلة والذل وهنة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء من النصارى وتعطيل معاشهم وعاشرها أجرة الحمام"⁽⁷⁷⁾.

ولكن ماذا استفادوا من حملة نابليون؟ لاشيء تقريبا. سياسيا ازداد الطين بلة فعم الاضطراب والفوضى والظلم كما بينا واجتماعيا دمر كل شيء حتى أننا من الصعب لأن نتحدث عن مجتمع مدني. فلاشيء مضمون من الحقوق الشخصية إلى الحقوق المدنية. فالملكية نفسها ليست مضمونة وعلى سبيل المثال كانوا يرفعون "الرزق الأجاسية" "ويكتبونها لمن يدفع حلوانه ثلاث سنوات أو أكثر وكتبوا له سنداً جديداً يكون هو المعول عليه"⁽⁷⁸⁾.

فلاشيء يشجع على العمل وعلى التطوير وعلى الكسب والتنمية من أي نوع مادام كل كسب أو رزق يصادر في أي لحظة بأية تعلقة من التعلات. وذلك ما كان قد لاحظته منتسكيو في تلك الرسالة التاسعة عشرة. يقول فيها بخصوص الملكية مايلي : "ويدخل الباشوات الذين لا يحصلون على وظائفهم إلا بدفع مال إلى المقاطعات مفلسين فيعيشون فيها فساداً كأنها موضوع فتوحات. إن الجند المتغطرس لا يخضع إلا لزوجاته فالأرجاء مهدمة والمدن خالية والأرياف مقفرة وزراعة الأرض والتجارة باتت مهجورة تمام الحجر.

أما ملكية الأرض فغير مؤكدة وبالتالي فإن الحماسة لإحيائها باتت خائفة. فليس ثمة من أرض ولا من ملكية هما بمنأى عن نزوات أولئك الذين يحكمون"⁽⁷⁹⁾.

ثم لم يستفيدوا من علم ولا من تقنية، فالنقالة التي أعجب بها الجبرتي لم يتبنها الناس في مصر إذ إنهم استمروا على نقل التراب بالغلقان يقول : "بادروا إلى الشيل ونقل التراب بالغلقان"⁽⁸⁰⁾ وما تأثروا به فهو فحسب العناية. مظهر العسكرية وقد فعل ذلك الجيش العثماني والمماليك على حد السواء. يقول :

"وجمع الباشا أيضا العبيد السود وأخذهم من اسيادهم بالقهر وجعلهم طائفة مستقلة وألبسهم شبه ما تقدم وأركبهم خيلا وجعلهم فرقتين صغارا وكبارا واختارهم للركوب إذا خرج إلى الخلاء وعليهم كبير يعلمهم هيئة اصطفاة الفرنسيين وكبقية أوضاعهم والإشارات بمرش وأردبوش"⁽⁸¹⁾ ويعني بالكلمتين الفرنسيين "سر" ثم "مارد بوج" Merde, bouge وهي كلمة ليست جيدة من حيث اللياقة.

وخلاصة القول : إن رد الفعل لم يكن صحيحا بالمرّة لا أسمى هذه الصدمة الحاصلة صدمة حداثة بل هي صدمة نرجسية إذ هي لم توقف التدعور الحاصل. وحتى خروج الفرنسيين من مصر لم يكن ناتجا عن مقاومة حقيقية ونتيجة نهوض روعي عظيم. وما حصل من تاثر لم يكن إلا بالمظهر ولذلك لم يتبع ذلك كله تنمية ونزوع إلى التقدم ولذلك ما فتئت تجربة محمد علي أن آلت إلى انخسار وما لبثت الجزائر أن احتلت في (1830) ذلك بدأ الحديث عنه في مصر في أوائل القرن التاسع عشر ومع ذلك لم يتخذ الباب العالي أي استعداد أو إجراء لمنع ذلكم الاحتلال. ثم إن هم الحكام لم يكن أكثر من إجراء اصلاحات عسكرية وبناء القصور التي تشبه فرساي مثلما الأمر مع أحمد باي في الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر. وذلك ما سيؤول بسائر تلك البلدان- إلى الاحتلال العسكري لتشهد فترة الاستعمار الفرنسي والانجليزي والإيطالي لها. ولن نشهد فعلا نهوضا إلا حيث أخذت الشعوب تعي نفسها وتدرّك قوتها وتتخلص من أولئك الذين كسروا فيها الروح لتنشأ فيها روح جديدة تحركها من أجل تحقيق استقلالها وتأكيد

حريتها. غير أننا ما زلنا نعاين من آثار الحكم العثماني أيما معاناة فكثير من مظاهر التخلف هي نتيجة من نتائج تلك المرحلة البغيضة.

الهوامش

- 1-عبدالرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ.
- 2-عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص249.
- 3-يقول ابن خلدون في مقدمته (ص268): "بل قد يجهل الكثير منهم قد كان لهم ملك في القدم" والملك هو لسانر المضرين أي الأمويين والعباسيين والفاطميين مما يعني أن المقصود هو تلك الحضارة المضرة التي هي كما تدعي اليوم الحضارة العربية الإسلامية.
- 4-المرجع السابق، ص268.
- 5-المرجع السابق، ص268.
- 6- Voltaire, Essai sur les mœurs, t.1 classique Garnier, bordas, Paris, 1990,p.260.
- 7- Montesquieu, les lettres persanes, lettre XIX, Garnier-Flammarion, Paris .
- 8- Voltaire, ibid., p.268.
- 9-الجبرتي، ص179.
- 10-الجبرتي، ص134.
- 11-الجبرتي، ص166.
- 12-الجبرتي، ص137.
- 13-الجبرتي، ص186.
- 14-الجبرتي، ص5.
- 15-الجبرتي، ص87.
- 16-الجبرتي، ص50.
- 17-الجبرتي، ص87.
- 18-الجبرتي، ص135.

- 19- الجبرتي، ص 19.
- 20- الجبرتي، ص 55.
- 21- الجبرتي، ص 134.
- 22- الجبرتي، ص 81.
- 23- الجبرتي، ص 143-144.
- 24- الجبرتي، ص 135..
- 25- الجبرتي، ص 160.
- 26- الجبرتي، ص 183.
- 27- Cf., par exemple, F.Charles-Roux, Bonaparte, gouverneur d,Egypte, librairie Plon Paris, p.26.
- 28- الجبرتي، ص 183.
- 29- الجبرتي، ص 183.
- 30- الجبرتي، ص 214.
- 31- الجبرتي، ص 214.
- Montesquieu, les lettres persanes, ibid., p.50-32
- 33- الجبرتي، ص 183.
- 34- الجبرتي، ص 188.
- 35- الجبرتي، ص 180.
- 36- الجبرتي، ص 180.
- 37- الجبرتي، ص 188.
- 38- الجبرتي، ص 181.
- 39- الجبرتي، ص 189.
- 40- ابن خلدون.
- 41- الجبرتي، ص 190.
- 42- الجبرتي، ص 190.
- 43- الجبرتي، ص 219.

- 44- الجبرتي، ص 218.
45- الجبرتي، ص 219.
46- الجبرتي، ص 191.
47- الجبرتي، ص 198.
48- الجبرتي، ص 198.
49- الجبرتي، ص 206.
50- الجبرتي، ص 226.
51- الجبرتي، ص 230.
52- الجبرتي، ص 230.
53- الجبرتي، ص 231.
54- الجبرتي، ص 232.
55- الجبرتي، ص 18.
56- الجبرتي، ص
57- الجبرتي، ص 233.
58- الجبرتي، ص 234.
Voltaire, ibid., p.261-59
Voltaire, ibid.,p.268 -60
61- الجبرتي، ص 235.
62- الجبرتي، ص 235.
63- الجبرتي، ص 236.
64- الجبرتي، ص 319.
65- الجبرتي، ص 18-217.
66- الجبرتي، ص 322.
67- الجبرتي، ص 499.
68- الجبرتي، ص 318.
69- الجبرتي، ص 518.

- 70- الجبرتي، ص 495.
- 71- الجبرتي، ص 360.
- 72- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الأول، تحقيق محمد أبو الفضل
ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1979 ص 629.
- 73- الجبرتي، ص 479.
- 74- الجبرتي، ص 495.
- 75- الجبرتي، ص 536.
- 76- الجبرتي، ص 579.
- 77- الجبرتي، ص 537.
- 78- الجبرتي، ص 518.
- Montesquieu, lettres persanes, p.50 - 79
- 80- الجبرتي، ص 535.
- 81- الجبرتي، ص 529.